حين هبط الإلهام الشعرى على الخلفاء والملوك والسلاطين

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

يستوى الإلهام الشعرى فى هبوطه (*) على كل ذى استعداد له ، وتأهُّبٍ لتلقِّيه ، سواء أكان سيدًا أم مسودًا ، حاكماً أم محكوماً ، أبيض أم أسود ، غنياً أم فقيرًا .

ألم يحدثنا تاريخ الأدب فى القديم ، والحديث عن شعراء من « السُّود » لم يمنعهم لونهم ولا سواد بشرتهم من أن ترفعهم موهبتهم فى الشعر إلى مراتب السادة ، ومنازل الأشراف ولم يقف (اللون) حائلا بينهم وبين تصدُّرهم فى ميادين الأدب ، وساحات الحكمة والفضل ؟

ألم يكن (عنترة العبسى) فى الجاهلية أميرًا فى الشعر دانت له مقاليد الكلام ، ولم يحجبه اللون عَنْ المكانة التى استحقها بحق فى تاريخ الشعر العربى ؟

ثم ألم يكن (سُحَيمٌ) على سواد لونه ، ومنزلته الاجتماعية المتواضعة فى المجتمع العربى ، شاعرًا يُصغَى إليه ، ويُستمعُ له ، وتردِّد الدنيا شعره ، وتَروى الأفواه حكمه ، حتى لقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يُعجب ببعض شعره ، ويردده فى مثل قوله

كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

فقد أدركْ مبعث النبى عليه السلام ، وأسلم وعُمِّر طويلا ؟

ثم ألم يكن عدد غير قليل من الشعراء فى العصر الجاهلى وماتلاه من عصور حتى

(*) المرحوم محمد عبد الغنى حسن ، كان عضوا نابها بالمجمع ، كما كان شاعرا عريق المجد فى الشعر ، وكاتبا ومؤلفا فى الأدب والنقد والتاريخ . (انظر ترجمته فى كتاب « المجمعيون فى خمسين عاما » بقلم أستاذه وزميله وصديقه الدكتور مهدى علام

يومنا هـذا مُدْقعين غارقين فى لجج الفقر والحرمان ، ولكن ذلك لم يمنع الإلهام الشعرى أن ينزل عليهم ، وأن يُؤْثرهم بروائعه وبدائعه ، وأن يجعل أبوابَ الخلفاء والملوكِ تُفْتح لهم ، يدخلونها بلا حجاب ولا حُرَّاس . . ؟ فقد كان « أبو نواس » نديماً للخليفة العباسى « المأمون » طول خلافته . كما كان « البحترى » نديماً وجليسا للخليفة العباسى « المتوكل » لايكاد يفارقه ، حتى لقد قُتل بحضره ؟

والخلفاء والسلاطين والحكام ليسوا إلا ناساً من الناس ، وَبَشَرًا من البَشَر ، يختصهم الإلهام الشعري بما يختص به أهلَ المواهب وأصحابَ الاستعداد ، ويجلو عليهم من صحيح الرؤية ، وبديع الخيال ماهم أهلٌ له ، ومامَيَّزَتْهُمْ به الموهبةُ والفطرة . فقد كان الشاعر الجاهلى : (امرؤُ القيس) أميرًا ولد فى بيت سيادة وَمُلك ، وكان أبوه ملكاً ذا قدرة وسلطان فى قبائل « كندة » وألقت الأيام عبءَ وراثة الملك على « امرئُ القيس » ، فطلّق ملذاتهِ وشهواته ، وقال عبارته المشهورة : (اليومَ خمرٌ ، وغدًا أمْرٌ) ، وأخذَ الإلهامُ الشعرىُّ المدونُ فيه يهبط عليه فى كل مناسبة ؛ فيجيدُ النظمِ ، ويُحسن التعبير ، ويتناول مختلف المعانى والأعراض فيع لجها بشعرهِ الصادق الذى يصور أحاسيسه ومشاعره أصدق تصوير .

وكان « محمد » عليه الصلاة والسلام – أوَّل رائد وقائدٍ للمسلمين – يستمع إلى الشعر الصادق العذب الناطق بالحكمة والسداد ، فيطربُ له . ويُعجب به فكان يستمع إلى شعر (سُحَيْم) عَبْدِ بنى الحَسْحاس ؛ ويستعذب معانى الصدق فيه وكان يصغى إلى « حسَّان بن ثابت » شاعر الدعوة الإسلامية فى هجائه للمشركين فيدعو له بأن يؤيِّده الله بُروح القُدُس ، ولكن الله لم يُلهمه عمَلَ الشعر ، ولم يعلِّمهُ إياه ، حتى لايتهم بأنه من أصحاب الخيال . ومع هذا اتهمه المشركون ، وقالوا عنه إنه ساحر أو مجنون .

ولقد بلغ من عدم معرفة النبى للشعر وعروضه وموازينه أنه كان أحياناً يَرْوِى البيتَ الصادقَ الحكيمَ من شِعر الشعراء ، الصادقين الناطقين بأحكم الأقوال ، فلا يقيمُ وَزْنَهُ . ولا يُعَدِّلُ ميْلَهُ فلقد كان عليه السلام

يستشهد ببعض الشعر الحكيم « لسحيم » ، فتمثل يوماً بقوله :

كفى الشَّيبُ والإسلام للمرءِ ناهياً

كما سلف القول ، ورواه هكذا ·

كفى بالشَّيب والإسلام للمرء ناهياً

بزيادة باء على كلمة . «الشَّيب » ، فاختل وزن الشطر ، وكان أبو بكر الصديق حاضراً ذلك المجلس النبوي – وهو رجل كان له بصر كبير بالشعر – كما يقول المحققون من المؤرخين ، فأصلح روايةَ الشعر على وجهه الصحيح . فأعادَها النبي عليه السلام على وجهها غير الموزون ، غيْرَ مُلتفِتٍ إلى تصحيح أبي بكر ، فقال أبو بكر معقبا ومعلِّقًا · (أشهد أنك لرسول الله ، وما علمناهُ الشعرَ وما ينبغي له) وفى حادثةٍ ثانيةٍ يَروِي النَّبِي – عليه السَّلام – بيتا للشاعر « طَرَفةَ بنِ العَبْد » هكذا .

ستبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا

ويَأْتيكَ من لم تُزوِّدْ بالأخبار

وصحَّتُهُ واستقامةُ وَزْنِه هكذَا :

ستُبدِى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

ويأْتِيكَ بالأخبارِ مَن لَمْ تُزوِّدِ

وإذا كان الله قد صرف نبيه صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر لحكمة بَدَت لنا بعضُ وجوهها ، فإن الخلفاء الراشدين لم ينصرفوا عن نظم الشعر جملةً . وقد غالى بعضُ الرواة فى نسبة كثير من الشعر إلى الخليفة الأول « أبى بكر الصديق » ، استنادًا إلى ما كان له به من بَصَر شديد فى روايته وتذوُّقِهِ ونَقْدِه . بل زاد بعضهم فنَسَبَ إليه قصيدةً صعبةَ المعالجة على قافية (الثاء) ، المثلثةِ الفَوقيةِ ، وهى قافيةَ ليست هيِّنةَ التداول . وقالوا إن «أبا بكر » نظمها فى غزوة (عُبَيْدة بنِ الحارث) الذى أرسله رسول الله فى ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين لاعير ليقاتلوا جماعة من قريش ، وهى الغزوة التى رمى فيها «سَعْدُبنُ أبي وقاص » بأول سهم فى الإســلام . ومطلع تلك القصيدة ·

أمِنْ طيفِ سَلمى بالبطاحِ الدَّمائث

أرِقْتَ وأمْرٍ فى العشيرةِ حادثِ

وقد رواها كاملةً مؤرخ السيرة النبوية · «ابن إسحاق » ، ولكن المؤرخ الثقة : « ابن هشام » أنكرها ، وقال فى التعليق عليها إن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها

أو ينكر نسبتها إلى « أبي بكر الصديق » ويبدو أن المؤرخ ابن هشام ع كثير من الحق في هذا الإنكار ، ومما يقوى قولَه ما رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت في حديث رواه الزُّهْرى : (كَذَب من أخبركم أن أبا بكر قال بيتَ شعر في الإسلام) . ويُفهم من حديث عائشة أن أباها رضى الله عنه قال شعرًا في الجاهلية قبل إسلامه

وقد تأثر برواية « ابن إسحاق » لقصيدة أبي بكر في تلك الغزوة بعضُ مؤرخي الأدب ونقاده ، وعلى رأسهم « ابن رشيق القيرواني » صاحبُ كتاب (العُمده ، في صناعةِ الشعر ونقْدِه) .

على أن ما نُسب للخليفة « عمر بن الخطاب » من الشعر أكثرُ مما نُسب إلى أبي بكر الصديق .

فقد جاء في كتب الأدب والنقد والتراجم نسبة البيتين الآتيتين إليه :

وهوِّنْ عليك فإن الأُمور
بكفِّ الإلهِ مقاديرُهـا

فليس بآتيك منْهيُّها
ولا قاصرٍ عنكَ مأمورُها

وإن كانَ أثْباتُ المحققين ينسبون هذا الشعر إلى « الأعور الشنِّى » . . .

ولم تَخْلُ سيرة الخليفةِ عثمانَ بن عفان من شعر نُسبَ إليه ، فقد نَسب إليه صاحب « العمدة » البيتين الآتيين :

غنَى النفسِ يُغنى النفسَ حتى يكفَّها
وإن عضَّها حتى يضُرُّ بها الفقرُ

وما عُسرةٌ فاصبرْ لها إنْ لقيتها
بكائنةٍ إلَّا سيتبعُهـا يُسْرُ

ومن الطريف أن مؤرخاً مصرياً قديماً كالإمام « السيوطى » توقف في « تاريخ الخلفاء » عن نسبة شيء من الشعر إلى الخليفة عثمان بن عفان ، وإن كان قد دوَّنَ أبياتا جميلة من رثاء الشاعر « كعب بن مالك » للخليفة الشهيد . .

أما رابع الخلفاء الراشدين . الإمام « عليُّ بن أبي طالب » ، ابنُ عم النبي عليه الصلاة والسلام ، وصِهْرُهُ على فاطمةَ سيدةِ نساء العالمين ، فقد وجد الرُّواة فيه مجالًا واسعاً لنسبة كثير من الشعر إليه ... ولعل اشتهار أبيه « أبي طالب » بالشعر

الجيِّد قد منَح الرواةَ فرصةً لنسبة « الإمام عليٍّ » إلى الشاعرية ، حتى تتحقق فيه نظريةُ وراثة المواهب .. ويؤكد الناقد الأدبي .

« ابن رشيق » أن (الخلفاء الراشدين الأربعة مامنهم إلاَّ من قال الشعر) ، ثم يقول المؤرخ السيوطى فى موطن من بعض كتبه : (كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان عليٌّ أشعر الثلاثة) .

ويلاحظ أن أكثر ما نُسب إلى « الامام على » من الشعر ليس على ماء واحد من الاستواء ، فهو مختلف المائية ، ولكنه يتميز باحتوائه على كثير من أخلاقيات « الإمام على » وسلوكياته المستقيمة فى الحياة . كقوله :

ولا تُفْشِ سرَّك إلّا إليكَ
فإن لكلِّ نصيحٍ نصيحا

فإنى رأيتُ غواةَ الرجال
لا يدعُونَ أديماً صحيحاً

بل ذهب بعض الرواة إلى المغالاة ، فنسبوا إليه شعرًا أمر أن يُنقش على سيفه ، وهو :

للناس حرصٌ على الدنيا بتدبير
وصفوها لكَ ممزوجٌ بتكدير

لم يُرْزَقوها بعقل بعد ما قُسِمتْ
لكنهم رُزقوها بالمقادير

كم من أديب لبيب لاتساعده
وأحمقٍ نالَ دنياهُ بتقصيرا

لوكان عن قوة أو عن مغالبة
طار البزاةُ بأرزاق العصافير » ..

ولما كان خلفاء الدولة العباسية من نسل « العباس » عمِّ النبي – صلى الله عليه وسلم ، فهُمْ عرب قرشيون ، وكذلك كانَ بنو أمية قبلهم . فهم من العرب الأقحاح الذين لم تفسدهم عُجمة الاختلاط بغير العرب . ولهذا نجد كثيرًا من خلفاء بنى أُمية ينظمون الشعرويجوِّدونه ، ويبرْعون فيه ! ومِن أشهر شعرائهم : معاويةُ بن أبى سفيان ، وابنه يزيدُ وعبدُ الملك بنُ مروانَ ، وهشامُ بنُ عبدِ الملك وعُمرُ بنُ عبد العزيز . كما نجد جماعة من خلفاء العباسيين يتذوقون الشعر ، بل ينظمونه نظماً جيدًا على مدار العصر العباسى كله ومن هؤلاءِ الشعراء الخلفاء العباسيِّين : المهدىُّ والهادى ، وهارونُ الرشيد

والأمينُ ، والمأمونُ ، والواثقُ ، والمعتصد ، والمعتمدُ والراضى ، والمستنجد

على أن قسوة الأحداث السياسية فى تاريخ الخلفاء فى العصر العباسى لا يجوز أن تُنْسينا اسم خليفة شاعر عباسىٍّ لم يطُلْ به المقامُ على سرير الخلافة أكثر من يوم وليلة ، وهو أقصرُ عُمْرٍ سمح به الزمانُ لخليفة إسلامىٍّ وأعنى به الشاعر الخليفة المقتول : « عبد الله بن المعتز » . ولاشك أنه أقوى الخلفاء العباسيين شعرًا ، وأصحُّهم ديباجةً ، وأكثرهُمْ تفننا فى مجال القول ، وأصدقُهُمْ وأعمقهُم شاعريةً .. فقد نَظَم فى أكثر أغراضِ فنون الشِعر ، من وصف ، وفخر ، ومدح ، وهجاء ، وسخرية ، وشكوى ، وغَزلٍ ، ويُعدُّ ديوانُه من أكثر دواوين الشعر العربى خصوبةً ، واحتفالا بالمعا بل لقد غالى بعضُ النقاد من المتعصبين للمشرق فنسبوا إليه موشحةً رقيقة المعانى ، لطيفةَ المبانى ، مطلعها :

أيُّها الساقِى إليكَ المشتكَى
قد دعوناكَ وإن لم تَسْمع

وإن كان بعض حذَقةِ النقادَ - وخاصةً من المحدثين - ينكرُ نسبتَها إليه

ولم تكن دول الخلافة الإسلامية الكبرى وحدها هى مناطَ تَجمُّعِ الخلفاءِ الشعراء ، كالدولة العباسية فى بغداد ، والفاطميةِ فى مصر ، بل كانت هناك فى المشرق وفى المغرب دُويلاتٌ أُخرى تتمتع بأُمراء أوسلاطين ينظمون الشعرَ ، ويجوِّدونه ، كدولة بنى حمدان التى امتاز شاعرها وأميرها « سيف الدولة الحمدانِى » بشاعرية عالية ، وكدولة (بنى عبَّاد) ملوك أشبيلية وقرطبة بالأندلس .

ولعل « المعتمد بن عباد » - من ملوك الطوائف بالأندلس - مِن أنْبَهِ ملوك العرب والمسلمين ذكرًا ، وأحْملهم شِعرًا ، وأحفلهم تاريخا بالأحداث الجسام فقد كانت حضرتهُ وحاضرتهُ بالأندلس ملْقَى الرحال ، وموسمَ الشعراء ، وقِبلةَ الآمال . ثم تقلبت به الأيام ، ودارت به أحوال الزمان ، فضاع منه ملكه ، وأخذ أسيرًا إلى بلدة (أغمات) بالمغرب ، وظل بها منفياً يبكى حظه ، ويندب حياته ، ويتذكر قصوره التى خلفها وراءه فى الأندلس تَنعَى من بناها ، فيقول فى شعر مؤثر حزين :

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ
سيبكى عليه منبرٌ وسرير

وتندبهُ البيضُ الصوارمُ و القنَا
وينهَـلُّ دمعٌ بينهن عزيز

مضى زمنٌ والمُلْكُ مستأنسٌ به
وأصبحَ منه اليوم وهو نفُورُ

ثم يمر به عيد من أعياد المسلمين وهو فى منفاه ، فيدخلُ عليه بناتُهُ المنفيات معه وهنّ يغزلن لتحصيل قُوتهنّ ، فيكاد المتسهدُ يقتله غما وحُزناً ، فيقولُ من أبيات رائعة .

فيما مضَى كنتَ بالأعيادِ مسرورًا
فساءَك العيدُ فى «أغمات» مأسُورًا

تَرَى بناتِكَ فى الأطمار جــائعةً
يَغزلْنَ للناس ما يملكْنَ قِطميرًا

مَن باتَ بعَدكَ فى مُلْك يُسرُّ به
فإنما بات بالأحـلام مغرورًا

وهكذا نرى شعر الخلفاء على مر الأيام يختلف بين مد وجزر . وقد صدق أصدق القائلين : (وتلك الأيامُ نداولها بين الناس) .

محمد عبد الغنى حسن
عضــو المجمع